

الفصل الثالث عشر

غزوة بدر الكبرى

خروج أبي سفيان إلى الشام - محاولة المسلمين قطع الطريق عليه - نجاته في الذهاب - انتظارهم إياه في أوبته - علم قريش بتجهيز المسلمين - خروجهم إلى بدر
نجاة أبي سفيان بتجارته - تردد قريش والمسلمين في القتال - زوال التردد - موقف الفريقين في بدر - حماسة المسلمين وانتصارهم.

تجارة أبي سفيان:

كان سرية عبد الله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، فيها رمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، فكان أول دم أراق المسلمون. وفيها نزلت الآية التي قدمنا؛ وعلى أثرها شرع قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدون عن سبيل الله. وكانت هذه السرية مفترق طرق كذلك في سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين يتناظران بأساً وقوة. فقد جعل المسلمون يفكرون من بعدها تفكيراً جدياً في استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد ﷺ وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام؛ حتى لقد أيقن محمد ﷺ أن لم يبق في مصانعتهم أو في الإلتحاق معهم رجاء. وقد خرج أبو سفيان في أوائل الحريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة يقصد الشام، وهي التجارة التي أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبي ﷺ إلى العسيرة. لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبي سفيان قد مرت بها ليومين من قبل وصولهم إليها؛ إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها في عودتها. ولما تحين محمد انصرافها من الشام بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ينتظران خبرها، فسارا حتى نزلا على كئيد الجهني بالحوراء وأقاما عنده في خباء حتى مرت العير، فأسرعا إلى محمد ليُفصيا إليه بأمرها وما رأيا منها.

خروج المسلمين إلى بدر:

على أن محمداً ﷺ لم ينتظر رسوله إلى الحوراء وما يأتيان به من خبر العير؛ فقد تراسى إليه أنها عير عظيمة، وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها، لم يبق أحد منهم من الرجال والنساء استطاع أن يساهم فيها بحظ إلا فعل، حتى قوم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير. ولقد خشى إن هو انتظرها أن تفوته العير في عودتها إلى مكة كما فاتته في ذهابها إلى الشام. لذلك تدب المسلمين وقال لهم: هذه

عير قريش؛ فأخرجوا إليها لعل الله ينقلكموها. وخَفَّ بعض الناس وتُفِل بعض، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعاً في الغنيمة، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله.

رسول أبي سفيان إلى قريش:

أما أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن ربيحت تجارتهم، وجعل ينتظر أخبارهم. وكان الجهني الذي نزل عليه رسولا محمد بالحوراء بعض من سأل. ومع أن الجهني لم يصدقه الخبر فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأَنْصار معه مثل ما تراسى إلى محمد من خبره؛ فخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش في حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلاً. عند ذلك استأجر ضَمَّص بن عمرو الْفِقَارِي فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عَرَض لها في أصحابه. ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادي فقطع أذني بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح. يا معشر قريش! اللطيمة^(١) اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها. النَّوْتُ النَّوْتُ! وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم. وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر. ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها، وقد كان لكل منهم في هذه العير نصيب.

نار قريش وكنانة:

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة، فكانت تردد بين النفي للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العير مكروه. وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشاً وكنانة بينهما نار في دماء تبادل الفريقان إراقتها. فإذا هي خفت إلى لقاء محمد لمنع عيرها منه خافت بنى بكر (من كنانة) أن تهاجها من خلفها. وكادت هذه الحجة تَرَجِّح وتؤيد رأى القائلين بالقعود، لولا أن جاء ملك بن جُعْشَم المَدْلَجِي، وكان من أشرف بنى كنانة، فقال: أنا لكم جار من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه. إذ ذاك رجحت كفة أبي جهل وعامر بن الحضرمي والدُّعَاة إلى الخروج لدفع محمد والذين معه، ولم يبق لكل قادر على القتال عذر في التخلف أو يرسل مكانه رجلاً. ولم يتخلف من أشرف قريش إلا أبو هب الذي بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان لَطاً^(٢) له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها. وكان أمية بن خَلْف قد أجمع على القعود، وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه

(١) اللطيمة: المال والتجارة.

(٢) لَط الفريم بالحق: ما ظل فيه ومنعه. ولط حقه جحده.

بالمسجد عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ وأبو جهل، ومع عقبة بَجْمَرَةٍ فيها بَخُورٌ ومع أبي جهل مُكْحَلَةٌ ومِرْوَدٌ فوضع عُقْبَةُ المِجْمَرَةَ بين يديه وقال: يا أبا على استَجِمِرْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنَ النِّسَاءِ. وقال أبو جهل: اكتحل أبا على فَإِنَّمَا أَنْتَ امْرَأَةٌ. فقال أمية: ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى، وخرج معهم؛ فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال.

مسيرة جيش المسلمين:

أما النبى عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة، لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرو بن أم مكتوم فيها على الصلاة بالناس، ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة. وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رابتان سوداوان، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها^(١)، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً. وكان حظ محمد فى هذا كحظ سائر أصحابه؛ فكان هو وعلى بن أبى طالب ومزند بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيراً. وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً وكانت عدّة من خرج مع محمد إلى هذه الغزوة خمسة وتلثمائة رجل، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقيون من الخزرج. وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم، وهم يحاولون حينئذ مرّوا أن يقفوا على أخباره. فلما كانوا بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً.

خروج قريش من مكة:

وانطلقوا حتى أتوا وادياً يقال له ذفران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا غيرهم. إذ ذاك تغير وجه الأمر. لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبى سفيان وغيره والثلاثين أو الأربعين رجلاً معه، لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها. فهب المسلمون أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبله وما عليها، فلن تلبث قريش أن تدركهم، يحفرها حرص على مالها والدفاع عنه وتوازرها كثرة عديدها وعددها، وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها. ولكن إذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه، واضطر إلى موقف المصانعة، واضطر أصحابه إلى أن يحوطوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة. وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلق كلمة الحق وأن ينصر الله دينه.

مقالة الأنصار:

استشار الناس وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش؛ فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن

(١) الاعتقاد هنا: أن يركب الواحد البعير مدة ثم ينزل ليشعه الآخر فيركبه.

عمر و فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»، وسكت الناس. فقال الرسول: أشيروا علي أيها الناس. وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم. فلما أحس الأنصار أنه يريدهم، وكان سمد بن معاذ صاحب رايتهم التفت إلى محمد وقال: نكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال سعد: «لقد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء - لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله». ولم يكن سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسرة وبدا عليه كل النشاط وقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وارتحلوا جميعاً، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، ومنه عرف أن عبر قريش منه قريب. تنطس الأخبار:

إذ ذاك عاد إلى قومه، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتلمسون له الخبر عليه. وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منها أن قريشاً وراء الكتيب بالعدوة القصوى. ولما أن أجابا أنها لا يعرفان عدّة قريش، سألهما محمد كم ينحرون كل يوم؟ فأجابا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فاستتب النبي من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف. وعرف من الغلامين كذلك أن أشرف قريش جميعاً خرجوا لمنع؛ فقال لقومه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» إذا فلا بد له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم في العدد ثلاثة أضعاف أن يشحذوا عزائمهم، وأن يوطنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه.

انفلات أبي سفيان ونجاة غيره:

وكما عاد علي ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معها ذهب اثنان من المسلمين حتى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذا وعاء لهما يستقيان فيه. وإنها لعل الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبتهما بدين عليها والثانية تجيبها: إنا تأتي العير غداً أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أقضيه لك. وعاد الرجلان فأخبرا محمدًا بما سمعا. فأما أبو سفيان فسبق الغير بتنطس الأخبار حدّر أن يكون محمد قد سبقه إلى الطريق. فلما ورد الماء وجد عليه مجدي بن عمرو، فسأله: هل قد رأى أحداً؟ وأجاب مجدي بأنه لم يرد إلا راكبين أناخا إلى هذا التل، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين. فأق

أبو سفيان مُنَاخَهَا فوجد في روث بعيريهما نوى عرفه من علائف يثرب، فأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مُسَاحلاً البحر مسرعاً في مسيره، حتى بُد ما بينه وبين محمد، ونجا. وأصبح الغد والمسلمون في انتظار مروره بهم، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مُقَاتلة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم؛ فيذوي في نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل الغنيمة، ويجادل بعضهم النبي كي يعودوا إلى المدينة ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيَّرَ ذَاتَ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

أيكون قتال؟

وقريش هم أيضاً، ما حاجتهم إلى القتال وقد نجت تجارتهم؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخفى حنين؟ كذلك فكر أبو سفيان وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم: إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، ورأى من قريش رأيه عددٌ غير قليل. لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح: والله لا نرجع حتى نردّ بدرًا فنقيم عليه ثلاثاً ننحر الجزر، ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب ويمسرننا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. ذلك أن بدرًا كانت موسماً من مواسم العرب؛ فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب، فيما رأى أبو جهل، بخوفهم من محمد ﷺ وأصحابه، مما يزيد محمداً شوكةً ويزيد دعوته انتشاراً وقوة وخاصةً بعد الذي كان من سرية عبدالله بن جحش وقتل ابن الحضرمي وأخذ الأسرى والغنائم من قريش.

نزول المسلمين بدرًا:

وتردد القوم بين اتباع أبي جهل مخافة أن يتهموا بالهين، وبين الرجوع بعد أن نجت عيرهم فلم يرجع إلا بنو زهرة الذين اتبعوا مشورة الأحنس بن شريق، وكان فيهم مطاعاً. واتبعت سائر قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلاً يتهيئون فيه للحرب ثم يتشاورون بعد ذلك. ونزلوا بالعدوة القصوى خلف كتيب من الرمل يمتون به. أما المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يشبثوا للعدو إذا أجمع على محاربتهم، لذلك يادروا إلى ماء بدر، ويسر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتهم إليها. فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل محمد به. وكان الحباب بن المنذر بن الجموح علياً بالمكان؛ فلما رأى حيث نزل النبي قال: يا رسول الله، رأيت هذا المنزل أمناً أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال محمد: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال:

يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهضْ بالناس حتى تأتيَ أدنى ماء من القوم فتنزّل ثم نغورْ ما وراءه من القُلب^(١)، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. ولم يلبث محمد حين رأى صواب ما أشار به الحُباب أن قام ومن معه وأتبع رأى صاحبه، معلناً إلى قومه أنه بشرٌ مثلهم وأن الرأى سُورى بينهم وأنه لا يقطع برأى دونهم، وأنه في حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم.

بناء العريش للنبي ﷺ:

ولما بنوا الحوض أشار سعد بن مُعاذ قائلاً: «نبي الله، نبني لك عريشاً تكون فيه وتعدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فليجعت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم بناصحوك وبجاهدون معك». وأتى محمد على سعد ودعا له بخير، وبني العريش للنبي، حتى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه لم يقع في يد عدوه واستطاع اللحاق بأصحابه في يثرب.

صدق إيمان المسلمين:

هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق وفاء المسلمين وعظيم محبتهم لمحمد وإيمانهم برسالته. فها هم أولاء يعلمون أن قريشاً تفوقهم في العدد وأنها ثلاثة أمثالهم، ومع ذلك اعتمروا الوقوف في وجهها وقتالها. وها هم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصيح الكسب المادى هو الذى يحفزهم للقتال، ومع ذلك قاموا إلى جانب النبي يؤيدونه ويعززونه. وها هم أولاء تتردد نفوسهم بين الطمع في النصر وخوف الهزيمة. ومع ذلك فكروا في حماية النبي وتوقيته أن يظفر به عدوه، ومهدوا له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة. فأتى موقف أدعى للإعجاب من هذا الموقف؟ وأتى إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان!

حمزة يقتل ابن عبد الأسد:

ونزلت قريش منازل القتال، ثم بعثوا من يقص لهم خبر المسلمين فجاءهم بأنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولا كمين لهم ولا مورد؛ ولكنهم قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله. ولما كانت صفوة قريش قد خرجوا في هذا الجيش، خشى بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانة. لكنهم خافوا حدة أبي جهل ورميه إياهم بالجبن والخوف، وإن لم يمنع ذلك عتبة بن ربيعة من أن يقف بينهم قائلاً: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لايزال

(١) القلب: جمع قلب، وهو البئر. بذكر ويؤنث. وتقويرها: كبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها.

الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته. فارجعوا واخلوا بين محمد وسائر العرب؛ فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه لما تكرهون». فلما بلغت أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظاً وبعث إلى عامر بن الحضرمي يقول له: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثارك بعينك، فقم فأنشد مقتل أخيك». وقام عامر فصرخ: وأعمراه! فلم يبق بعد ذلك من الحرب مفرّ. وأعجل القتال أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوا! فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دمًا، ثم أتبعها حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض. ولا شيء أرفه لظلمة السيوف من منظر الدم: ولا شيء أشد إثارة لعواطف القتال والحرب في الإنسان من مرأى رجل مات بيد العدو وقومه وقوف ينظرون.

وما إن سقط الأسود حتى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة. وخرج إليه فتية من أبناء المدينة. فلما عرفهم قال لهم: ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا. ونادى مناديمهم: يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا. وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث. ولم يجهل حمزة شيبه ولا أمهل علي الوليد أن قتلاهما، ثم أعانا عبيدة وقد ثبت له عتبة. فلما رأت قريش من ذلك ما رأت، تراحف الناس، والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشر خلت من شهر رمضان.

انتقاء الجمعين - دعاء محمد ﷺ وابتهاله:

وقام محمد ﷺ على رأس المسلمين يعدل صفوفهم. فلما رأى كثرة قريش وقلة رجاله وضعف عدتهم إلى جانب عدة المشركين عاد إلى العريش ومعه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفًا من مصير ذلك اليوم، وأشد ما يكون إشفاقًا مما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر. واستقبل محمد ﷺ القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه، وجعل ينشده ما وعده وصهف به أن يتم له النصر. وبالغ في التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». وما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبلًا القبلة حتى سقط رداؤه؛ وجعل أبو بكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويهيب به: يا نبي الله، بعض ما سئدتك ربك؛ فإن الله متجزئ لك ما وعدك. ولكن محمدًا ظل فيها هو فيه أشد ما يكون توجهًا وأشد ما يكون تضرعًا وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذي لم يتوقعه المسلمون ولم يتخذوا له عدته، حتى حقق حقيقته من ناعس رأى خلالها نصر الله. وانتبه بعدها مستبشراً، وخرج إلى الناس بجرضهم ويقول هم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

القوة المعنوية:

وسرت من نفسه القوية، أمدها الله من لدنه بما سبها فوق كل قوة، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوة ضاعفت عزمهم، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال. ويسير عليك أن تقدر هذا إذا ذكرت ما لازداد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها. فذافع الوطنية يزيدا. وهذا الجندى الذى يقف مدافعاً عن وطنه المههد بالخطر تمثل النفس بالعاطفة الوطنية، تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به، وبمقدار تخوفه من الخطر الذى يتهدد العدو الوطن به. ولهذا تغرس الأمم في نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حب الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله. والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعاني الإنسانية السامية يزيد القوة المعنوية في النفس بما يضاعف القوة المادية فيها. والذين يذكرون ما قام به الحلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان، أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ومحاربون في ألمانيا الجندية المسلحة ويمهدون لعهد سلام ونور، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف في أكثر أمم العالم. وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان محمد يدعو إليه ! إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالاً يندمج به فيه ويصبح قوة من قوى الكون الموجه له إلى سبيل الخير والنعمة والكمال ! نعم ما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب الوقوف في جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه، والذين يصدون عن سبيله. والذين ينزلون بالإنسان إلى درك الوثنية والإشراك. إذا كانت النفس يزيدا حب الوطن قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة، ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوة بمقدار ما في الإنسانية من قوة، فما أكثر ما يزيدا الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة !! إنه ليجعلها قديرة أن تسير الجبال، وتحرك العوالم، وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيماناً.

تحريض محمد ﷺ المؤمنين:

وهذا السلطان المعنوي يزيد قوتها أضعافاً مضاعفة، فإذا لم يصل هذا السلطان المعنوي إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة، لم تبلغ القوة المادية كل ما تطمح إلى بلوغه، وإن هي زادت بفعل هذا الإيمان الذى ازداد قوة بتحريض محمد أصحابه فعوضهم بذلك عن قلة عددهم وعُدَّتْهم. وفي حال النبي وأصحابه هذه نزلت الآيتان: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ. الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

بلال يقتل أمية بن خلف:

ازداد المسلمون قوة بتحريض محمد ﷺ إياهم ووقوفه بينهم ودفعهم لمقاتلة العدو والصيحة بهم أن الجنة لمن أحسن البلاء منهم ومن غمس يده في العدو حاسراً. ووجه المسلمون أكبر هههم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم جزاءً وفاقاً لما عذبوه بمكة، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله. رأى بلال أمية بن خلف وابنه، ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله. وكان أمية هو الذي عذب بلالاً إذ كان يُخرجه إلى رَمْضاء مكة فيضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتته عن الإسلام، فيقول بلال: أخذ أخذ - رأى بلال أمية فصاح به: أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا! وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيراً. فصرخ بلال بأعلى صوته في الناس: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا. واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قُتل أمية. وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام. وخاض حمزة وعلي وأبطال المسلمين وطيس معركة وقد نسي كل منهم نفسه ونسى قلة أصحابه وكثرة عدوه، فنار النقع وامتلاً الجو بالغبار، وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوةً ويصيحون مهللين: أخذ أخذ، وقد كشفت أمامهم حُجُب الزمان والمكان وأمدّهم الله بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم تشبباً وإيماناً، حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع سيفه وهوى به على عنق عدوه وإنما تحرك قوة الله يده.

محمد ﷺ وسط المعركة:

وقف محمد وسط هذا الوطيس يتمشى خلاله ملك الموت يُقَطُّ رقبة الكفر، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال: شاهت الوجوه! ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شدوا. وشدّ المسلمون وما يزالون أقل من قريش عددًا، لكن كل واحد منهم امتلأت بنفحة من أمر الله نفسه، فلم يكن هو الذي يقتل العدو، ولا كان هو الذي يأسر من يأسر، لولا هذه النفحة التي ضاعفت قوته المعنوية بما ضاعفت قوته المادية. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (٢).

لما آانس الرسول أن الله أنجزه وعده وأتم على المسلمين النصر عاد إلى العريش. وفرت قريش فطاردهم المسلمون يأسرون منهم من لم يُقتل ولم يساعفه حسن فراره بالنجاة.

(١) سورة الأنفال آية ١٢.

(٢) سورة الأنفال آية ١٧.

المسلمون لا يقتلون من أحسنوا إلى المسلمين:

هذه غزوة بدر التي استقرَّ بها الأمر للمسلمين من بعدُ في بلاد العرب جميعاً، والتي كانت مقدمة وُحْدَة شبه الجزيرة في ظلال الإسلام، ومقدمة الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف، والتي أقرَّت في العالم حضارة لا تزال ولن تزال ذات أثر عميق في حياته. ولقد تعجَّب إذ تعلم أن محمداً، على ما كان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بنى هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش، مع أنهم اشتركوا في قتال المسلمين؛ ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله. ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يجابى أهله أو أحداً من يمتون إليه بأصرة القرى، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمنزل هذا، وإنا ذكر لبني هاشم منهم إياه مدى ثلاثة عشر عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة. وذكر لغير بنى هاشم من قريش جميل من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة، التي اضطرتَّ بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب، بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة. فهذا المعروف الذي تقدَّم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنةً يُجزى من قَدَمها بمنزلها، بل يُجزى بعشر أمثالها، لذلك كان شفيحاً لهؤلاء عند المسلمين ساعة القتال، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البخترى أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة، فقد أبى وقُتل.

أهل القليب:

ولَّى أهل مكة الأديار كاسفاً بالهم، خاشعة من الذل أبصارهم، لا يكاد أحدهم يلتقى نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلاً من سوء ما حلَّ بهم جميعاً. أما المسلمون فأقاموا بيدراً إلى آخر النهار، ثم جمعوا الذين قتلوا من قريش فحفروا لهم قليباً فدفنواهم فيه. وقضى محمد ﷺ وأصحابه تلك الليلة في الميدان في شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى. وإذا جنَّ الليل جعل محمد ﷺ يفكر في نصر الله المسلمين على قلة عددهم، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من عوة الإيعان عضدٌ تعزُّ به كثرتهم. جعل يفكر في هذا، حتى سمعه أصحابه جوفَّ الليل وهو يقول: «يأهل القليب! يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة! ويا أمية بن خلف! ويا أبا جهل بن هشام! - واستمر يذكر من في القليب واحداً بعد واحد - يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادى قومًا جيئوا^(١)! قال عليه السلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني». ونظر رسول الله في وجه أبي حذيفة بن عتبة فآلفاه كثيراً حتى تغير لونه. فقال: «لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك

(١) جيئوا: أنتنوا.

شيء؟ قال أبو حذيفة: لا والله يا رسول الله! ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلياً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام. فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له، أحزنتني أمره» فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير.

اختلاف المسلمين على الفيء:

ولما أصبح الصبح وأن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة، بدءوا يتساءلون في الغنيمة لمن تكون. قال الذين جمعوها: نحن جمعناها فهي لنا. وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته: نحن والله أحقّ بها، فلولا لنا لما أصبتموها. وقال الذين يحرسون محمداً مخافة أن يرتدّ إليه العدو: ما أنتم ولاهم أحقّ بها منا، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنع، ولكننا خفنا على رسول الله كرهة العدو فقمنا دونه. فأمر محمد الناس أن يردّوا كل ما في أيديهم من الغنائم، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه.

قسمته بينهم على السواء:

وبعث محمد إلى المدينة عبد الله بن رَواحة وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر. وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله بن كعب. وسار القوم، حتى إذا تخطّوا مَضِيقَ الصَّفراء نزل محمد على كتيب فقسم هناك النفل الذي أفاء الله على المسلمين، بين المسلمين على سواء. يقول بعض المؤرخين إنه قسمه بينهم بعد أن أخذ منه الخمس، لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

ويذهب الأكثرون من كتاب السيرة، والمتقدمون منهم خاصة، أن هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قَسَمَ فيها، وأن محمداً جعل القسمة بين المسلمين على سواء، وأنه جعل للفرس مثل ما للفرس، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر، وجعل حصةً لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدرًا ما كان قائماً فيها بعمل المسلمين، ومن حرّضه حين الخروج إلى بدر وتخلّف لعذر قبله الرسول. وكذلك قسم الفيء بالقسط. فلم يشرك المقاتل وحده في الحرب والنصر، بل اشترك في الحرب والنصر كل من كان لعمله في الفوز حظاً أيّاً كان هذا العمل، وفي ميدان القتال كان أو بعيداً عنه:

قتل أسيرين:

وبينا المسلمون في طريقهم إلى مكة قُتل من الأسرى رجلان: أحدهما النضر بن الحارث،

(١) سورة الأنفال آية ٤١.

والآخر عُقبة بن أبي مُعَيْط. ولم يكن محمد ولا كان أصحابه إلى هاتمه اللحظة قد وضعوا للأسرى نظاماً يكون على مقتضاه قتلهم أو فداؤهم أو استرقاقهم. لكن النضر وعُتْبة كانا من المسلمين أيام مقامهم بمكة شراً مستطيراً، وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان. قُتِلَ النُّضْرُ حين عُرض الأسرى على النبي عليه السلام عند بلوغهم الأثيل، فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير وقال لرجل إلى جنبه: محمد والله تاتلي! لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت. قال الذي إلى جنبه: ما هذا والله منك إلا رعب. وقال النضر لمُصَعب بن عُمَيْرٍ، وكان أقرب من هناك به رحماً: كَلِمَ صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل. فكان جواب مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه. قال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حي. قال مُصَعب: والله إنى لا أراك صادقاً، ثم إنى لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود، وكان النضر أسير المُقداد، وكان يطمح أن ينال افتداء أهله إياه مالاً كثيراً. فلما رأى الحديث حول قتله صاح: النضر أسيرى. قال النبي عليه السلام: اضرب عنقه، واللهم أغن المقداد من فضلك. فقتله عليُّ بن أبي طالب ضرباً بالسيف.

ولما كانوا في طريقهم بعرق الظبية أمر النبي بقتل عُقبة بن أبي مُعَيْط فصاح عقبة: فمن للصبيبة يا محمد؟! قال: النار. وقتله عليُّ بن أبي طالب أو قتله عاصم بن ثابت، على اختلاف في الرواية.

أنباء النصر بالمدينة:

وقبل أن يصل النبي ﷺ والمسلمون المدينة بيوم وصلها رسوله زيد بن حارثة وعبدالله بن رَواحَة، ودخل كل واحد من ناحية منها؛ فجعل عبد الله ينادى على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه، ويذكر لهم مَنْ قُتِلَ من المشركين. وجعل زيد بن حارثة يصنع صنعة وهو ممتط القسواء ناقة النبي. وسرَّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم في داره وانطلقوا يهللون لهذا النصر العظيم.

اليهود والمشركون بالمدينة:

أما الذين بقوا على الشرك، وأما اليهود، فقد كُتِبُوا لهذا النيا، وحاولوا أن يقتنوا أنفسهم وأن يقتنوا الذين أقاموا في المدينة من المسلمين بعدم صحته، فصاحوا؛ إن محمداً قُتِلَ وأصحابه هُزِمُوا، وهذه ناقته نعرفها جميعاً لو أنه انتصر لبقيت عنده، وإنما يقول زيد ما يقول هذياناً من الفرع والرعب. لكن المسلمين ما لبثوا حين تثبتوا من الرسولين واطمأنوا إلى صحة الخبر أن زاد بهم السرور لولا حادث طراً خفف من سرورهم. ذلك الحادث هو موت رُقية بنت النبي، وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة، وترك معها زوجها عثمان بن عفان مريضاً. ونا أيقن المشركون والمتناقون بنصر محمد أسقط في أيديهم، ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلة،

حتى قال أحد زعماء اليهود: بطنُ الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن.

أسرى بدر:

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم، فلما جرى بهم ورجعت سودة بنت زمعة زوج النبي من مناة ابني عفراء وكانت بهم، رأت أبا يزيد سهيل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يده إلى عنقه بحبل، فلم تملك نفسها أن توجه إليه الكلام قائلة: أى أبا يزيد! أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم، ألا يتم كراماً! فناداها محمد من البيت: يا سودة! أعلى الله عز وجل وعلى رسوله تحرضين! فأجابت: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت. وفرق محمد الأسارى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيراً. وطفق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم: أفيقتلهم أم يأخذ منهم الفداء؟ إن منهم لأشداء في الحرب أقوياء في النضال، ومن امتلأت بالحق والضعيفة نفوسهم بعد الذى كان من هزيمتهم بيد وما لحقهم من عار الأسر؛ فإن هو قبل الفداء كانوا عليه حرباً وآلباً، وإن هو قتلهم أثار في نفوس أهليهم من قريش ما ربما هدأ لو أنهم افتدوهم.

مقالنا أبو بكر وعمر في الأسرى:

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخيار. وكان المسلمون قد أنسوا من الأسرى طمعاً في الحياة واستعداداً لقدية عظيمة. فقال هؤلاء: لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعظماً، ولا نعلم أحداً أثر عند محمد منه. وبعثنا إلى أبي بكر فقالوا له: أبا بكر، إن فينا الآباء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب. كلُّ صاحبك بيننا أو يفادنا. فوعدهم خيراً، وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم، فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبي بكر، فنظر إليهم شزراً. وذهب وزيراً محمد إليه فجعل أبو بكر يُلينه ويقشوه^(١) ويقول يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنى العم والإخوان وأبعدهم منك قريب. فأمئن عليهم من الله عليك، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، ففعل الله أن يقبل بقلوبهم. وسكت محمد فلم يجبه، فقام فتحمى. وجاء عمر فجلس مجلسه وقال: يا رسول الله، هم أعداء الله، كذبوك، وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، هم رهوس الكفر وأئمة الضلالة يوطيء الله بهم الإسلام وينزل بهم أهل الشرك. ولم يجيب محمد. فعاد أبو بكر إلى مقعده الأول وجعل يتلطف ويستعطف، ويذكر القرابة والرحم، ويرجو هؤلاء الأسرى الهدى إن هم أبقوا على حياتهم؛ وعاد عمر مثال العدل الصارم لا تأخذه فيه هواة

(١) يفتوه: يكسر غضبه ويسكنه.

ولا رحمة. ولما فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما، قام محمد فدخل قُبته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم، يقف بعضهم في صف أبي بكر، ويقف آخرون في صف عمر. فشاورهم فيها يصنع، وضرب لهم في أبي بكر وفي عمر مثلاً. فأما أبو بكر في الملائكة كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل. قدّمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١) وأن قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)، ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣). ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنعمة على أعداء الله. ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَبَابًا﴾^(٤) وكمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٥). ثم قال: وإن بكم عيلة؛ فلا يفوتكم رجل من هؤلاء إلا يفداء أو ضربة عنق. وتشاور القوم فيها بينهم وكان من بين الأسرى شاعر، هو أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي، رأى خلاف القوم واستعجل النجاة فقال: لي خمس بنات ليس هنّ شيء فتصدّق بي عليهنّ يا محمد، وإني لمعطيك موتقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً. فأمنه النبي وأرسله من غير فداء، وكان هو وحده الأسير الذي ظفر بهذا الأمان. على أنه ما لبث أن نكث عهده، وأن عاد فقاتل بعد عام في أحد. فأسير وقتل. وظلّ المسلمون في تشاورهم زمناً انتهوا بعده إلى قبول الفداء. وفي قبولهم نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦).

جدال المستشرقين:

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النضر وعقبة ويتساءلون: ليس في ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ظمأ لولاه لما قُتل الرجلان، ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالقىء الذى غنموا؟ وذلك تساؤل الذى يريد أن يثير في النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع، ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزوات وسيلة للنيل من الدين ومن صاحب الدين. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازننا بين مقتل النضر وعقبة، وما يجرى اليوم وما سيجرى دائماً ما دامت الحضارة الغربية، التى تتشعق بوشاح المسيحية، متحكمة في الأرض. فهل تراه يوازي

(٤) سورة نوح آية ١٢٦.

(٥) سورة يونس آية ٨٨.

(٦) سورة الأنفال آية ٦٧.

(١) سورة الأنبياء آية ٦٧.

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٦.

(٣) سورة المائدة آية ١١٨.

شيئاً إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات في بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها! وهل تراه يوازي شيئاً إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى؟ ثم هل هو يوازي شيئاً مما حدث أثناء الثورة الفرنسية الكبرى، وأثناء الثورات المختلفة التي وقعت وتقع في أمم أوروبا المختلفة؟! الثورة على الوثنية:

وليس ريب في أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوية من محمد بعثه الله ليقوم بها في وجه الوثنية والمشركين من عبّادها. ثورة قامت أول أمرها بمكة، واحتمل محمد وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عاماً سوياً. ثم انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جمعهم وتواتهم بها، وما تزال مبادئ الثورة قائمة على أشدها في نفوسهم وفي نفوس قريش جميعاً. وانتقال المسلمين إلى المدينة، وموادعتهم اليهود من أهلها! وما قاموا له من مناقشات سبقت بدرًا، وغزوة بدر هذه - ذلك كله كان سياسة الثورة ولم يكن مبادئها. كان السياسة التي قرر القائم بهذه الثورة وأصحابه أن يتبعوا لإقرار أسس المبادئ - التي جاء الرسول بها. وسياسة الثورة شيء ومبادئها شيء آخر. والخطة التي تتبّع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من هذه الخطة. أما وقد جعل الإسلام الأخوة أساس الحضارة الإسلامية، فيجب أن يسلك للتجّاح سبيله وإن اقتضى ذلك من العنف والشدة ما لا مفرّ منه.

مجزرة سان بارتلمي:

وهذا الذي صنع المسلمون بأسرى بدر آية في الرحمة وفي الحسنى إلى جانب ما يقع في الثورات التي يتغنى أهلها بعمان العدل والرحمة. وهو لا شيء إلى جانب المجازر الكثيرة التي قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارتلمي، هذه المجزرة التي تعتبر سبّة في تاريخ المسيحية لا شيء من مثلها قطّ في تاريخ الإسلام. هذه المجزرة التي دُبرّت بليل، وقام فيها الكاثوليك يذبّحون البروتستانتين في باريس وفي فرنسا غدراً وغيلة في أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة. فإذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قُساء على المسلمين، مدى الأعوام الثلاثة عشر التي احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة، فقد كان في ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائدة العاجلة ما نزلت معه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

الندير إلى مكة:

بينما كان المسلمون في فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغانم كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعي يحث الطريق إلى مكة، حتى كان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصائبها في

كبرائها وأشرفها وسادتها. وقد ذهلت مكة أول الأمر فلم تصدق الخبر. وكيف لا تذهل وهي تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة الأشراف منها! لكن الحيسمان لم يكن يهذى وكان يؤكد ما يقول وهو أشد من قريش جزعاً لما أصابهم. فلما استوثقوا من روايته خروا صعيقين، حتى لقد حُم أبو هب ومات بعد سبعة أيام.

موت أبي هب - افتداء الأسرى:

وتشاورت قريش ما تصنع فأجمعت على ألا تنوح على قتلها مخافة أن يبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بهم، وألا تبعث في أسراها حتى لا يَأْرَبَ^(١) عليها محمد وأصحابه ويغفلوا في الفداء. وانقضى زمن وقريش صابرة على محتنتها، حتى سنحت فرصة افتدائها أسراها. إذ ذاك قدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو. وكأنما عز على عمر بن الخطاب أن يفتدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه، فقال: يا رسول الله، دعني أنزع ثيبي سهيل بن عمرو فيدفع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً. فكان جواب النبي ﷺ هذا الجواب البالغ غاية السمو: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً.

افتداء أبي العاص بن الربيع وإسلامه:

وبعثت زينب ابنة النبي ﷺ فتتدى زوجها أبا العاص بن الربيع، وكان فيما بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها. فلما رآها النبي ﷺ رق لها رقة شديدة، فقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا. ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبي العاص على أن يفارق زينب وقد فرق الإسلام بينه وبينها. وبعث محمد ﷺ زيد بن حارثة وصاحباً معه فجاء بها إلى المدينة. على أن أبا العاص ما لبث بعد مدة إيساره أن خرج إلى الشام في مال قريش؛ حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سرية لمحمد ﷺ فأصابوا ما معه. فانهدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته، ورد المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكة فلما رده لأصحابه من قريش قال: يا معشر قريش! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا! جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما متعني من الإسلام عنده إلا مخافة أن نظنوا أني ما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. وعاد إلى المدينة ورد عليه النبي زينب. واستمرت قريش تفتدى أسراها. وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف، إلا من لا شيء عنده فقد من عليه محمد ﷺ بحرته.

(١) لا يَأْرَبُ عليها: لا يتشدد عليها.

بكاء قريش قتلها، هند وأبو سفيان:

لم يهون ذلك على قريش مُصابها، ولا هو دعاها إلى أن تهادن محمدًا أو أن تنسى هزيمتها؛ بل ناحت نساء قريش من بعد ذلك على قتلها شهرًا كاملًا، فجززن شعر رءوسهن، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فيُنحَن حولها؛ ولم يخالف في هذا إلا هند بنت عتبة زوج أبي سفيان. ولقد مشى نساء منهن يومًا إليها فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟! فقالت: أنا أبكيهم فيبلغ محمدًا وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء المخزرج إلا والله حتى أتأثر من محمد وأصحابه! والذهن على حرام حتى نغزو محمدًا! والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت، ولكن لا يذهب إلا أن أرى نأرى بعينى من قتل الأعبة. ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش أبي سفيان وتحرض الناس حتى كانت وقعة أحد. أما أبو سفيان فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا.